من أدب النكسة...

قراءة لقصص "فارس مدينة القنطرة"

بقلم سليمان فياض

بعد الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عرفنا في أدبنا العربي الحديث ما يمكن ان نسميه بأدب النكسة . وفي الاشكال الادبية المعتادة من قصة وشعر ومسرح . ولم يكن هذا النوع من الادب جديدا . فقد كانت له بدايات ضعيفة في الادب العربي بعد نكسة عام ١٩٤٨. وتمثلت هذه البدايات في الاعمال الادبية التي كتبت باقلام فلسطينية في شكلي القصة والشعر بصفة خاصة . وكانت هذه الاعمال الادبية الفلسطينية انضج من مثيلاتها التي كتبت باقلام عربية شقيقة في هذا الموضوع . ولان حرب عام ١٩٥٦ بين العرب واسرائيل الصهيونية ، لم تأخذ في وجدان العرب صورة النكسة ، فان ما يسمى بأدب النكسة في أدبنا العربي ، لم يتقدم كثيرا ، بمزيد من التطور والخصوبة والعمق .

لكن بعد حرب الخامس من يونيو (حزيران) ، واحتلال البقية الباقية من الارض الفلسطينية ، ومرتفعات الجولان حتى القنيطرة ، وسيناء حتى « القنطرة » ، بلغ ادب النكسة ذروته ، وما زال يمنح ايقاعاته من هذه الذروة ، في سائر الاوطان العربية ، وبخاصة تلك التي هزّ ضميرها الشعبي والرسمي والادبي ، الاحتلال الاسرائيلي السريع الواسع المفاجيء . ولم يعد الكتاب والادباء الفلسطينيون وحدهم المعبرون عن أدب النكسة ، فقد انضم اليهم معظم الكتاب والادباء العرب ، ومن بينهم السوريون والمصريون والاردنيون بصفة خاصة ، بعد ان نكبت بلادهم بالاحتلال الذي يخشى ان يصبح استيطانا ، بل ان يستفحل ، فيصبح المزيد من أهل المدن والقرى العربية لاجئين جددا .

وأدب النكسة غير ادب الحرب .

ادب الحرب في حياة الشعوب أدب بناء ، يحث ويحض ، يحفز ويثير ، يدافع ويهاجم ، ويحرك الهمم ، حتى اذا ما انتهت الحرب ، ظل ادب الحرب يتحدث عن الحرب باعتبارها ويلات اثارها النازيون والفاشيون والغزاة والمعتدون ، واضيرت بها الشعوب التي تعمل للتقدم والسلام ، وتتحرك للنمو والتقدم ، والبناء والتعمير . كما نرى في أدب الحرب بالاتحاد السوفيتي وفيتنام ودول اوروبا الشرقية .

اما ادب النكسة فهو تعبير عن هزيمة لم تتحول بعد الى مقاومة كبيرة ، والى امل مفتوح للنصر والمجالدة ، انه ادب في طريقه الى ان يكون ادب حرب بصورتيه : صورته المواكبة للحرب الفعلية الضارية ، وصورته الختامية لهذه الحرب ، التي تحاول الاستفادة من دروسها الانسانية ، طلبا للسلام ، وسعيا الى الامن ، لكنه في الوقت نفسه ، يمكن ان يتحول الى ادب مراث للدول والممالك والحضارات ، كأدب المراثي الذي عرفه تاريخنا وأدبنا العربي ، اثر ضياع الاندلس ، وجزر البحر الابيض المتوسط من أيدي العرب قبل خمسة أو ستة قرون فقط.

لونان من ادب النكسة

من ادب النكسة الذي عرفه أدبنا العربي ، بعد الخامس من حزيران ، لونان من الادب في باب القصة ، نقصر حديثنا هنا عليهما في هذا المقال .

اللون الاول تعبر عنه القصص القصيرة والطويلة التي عالجت موضوع الصراع العربي الاسرائيلي ، مثل « سداسية الايام الستة » لاميل حبيبي ، و « عودة الطائر الى البحر » لحليم بركات، واقصوصة « أوراق شاب عاش منذ الف عام » ، وبعض قصص مجموعتي القصصية « أحزان حزيران »،وعديد من قصص « غسان كنفاني » وآخرين سواهم.

واللون الثاني تعبر عنه القصص القصيرة والطويلة للاكثرية الساحقة من قصاصينا العرب ، بعد الخامس من يونيو (حزيران) ، والتي عالجت موضوع الواقع العربي ، باعتبار ان ما فيه من تخلف وتقاليد ، وروح غيبية ، وبداوة ، وقصور عن مواجهة التحدي الحضاري للعصر ، هو الذي أثمر نكسة ١٩٦٧ ، وما قبلها من نكسات القرن العشرين ، وباعتبار ان المواجهة الوجدانية بالادب ، والعصرية بالعلم ، هي الطريق الوحيد للخروج من هذه النكسة ، ولميلاد النصر، مع ادب الحرب ، وتغير المجتمع العربي الى صورة علمانية وعقلية في شتى المجالات الحضارية .

وقد أخذت نماذج هذا اللون طريقين : احدهما طريق التعرية للواقع العربي ونماذجه ، مرتبطة ، ولو بالاشارة العارضة ، بتجربة الصراع العربي الاسرائيلي ، والآخر طريق التعرية لهذا الواقع العربي، دون محاولة للربط بين تجربة الواقع ، وتجربة الصراع .

ولهذا اللون من أدب النكسة نماذج كثيرة وعديدة ، أسهم فيها جل القصاصين العرب مثل « نجيب محفوظ » بمجموعتيه القصصيتين الاخيرتين ، « شهر العسل » و حكاية لا بداية ولا نهاية » و « زكريا تامر » في مجموعته القصصية « الرعد » وكثيرون غيرهما . ومن الملاحظ ان قصص هذا اللون الناقد للواقع ، المجتمع عليه ، تأخذ لنفسها اكثر من سبيل ، حسب طبيعة الكاتب وجرأته ، وحسب الظروف الديمقراطية المحيطة به . فبعضها يلجأ في نقد الواقع وتعريته، الى الرمز والتجريد والتضبيب ، وبعضها يلجأ الى تجارب مماثلة ،

يستمدها من التاريخ ، لفضح الواقع العربي ، او ربما ايضا لتصوير طبيعة الصراع العربي الاسرائيلي ، باعتباران التاريخ يكرر نفسه احيانا، في تجارب الشعوب المهزومة امام غزاتها، وبعضها يحمل النبعة بشجاعة المواجهة ، فينقد الواقع ويعريه ، بصورة مباشرة ، قد تصل الى حد الهجاء ، والفناء ، والخطابة ، والرثاء ، مستفيدا في وصول اعماله الى الجماهير ، من وجود اكثر من عاصمة عربية للادب .

فارس مدينة القنطرة :

على طول هذه المقدمة عن ادب النكسة ، فهي خطوط سريعة ، كان لا بد منها لفهم ما هو ادب النكسة ، وبالتالي نماذجه ، في محاولة لاستفادة الناقد والقارىء منها ، عند مطالعتهما لمعظم القصص الاخيرة، بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، وهي قصص عظيمة القيمة والاثر ، تقوم بدور النذير قبل البشير ، والايقاظ قبل مجرد التنبيه . وينبغي للقارىء والناقد معا ، ان يواجها هذه الاعمال بالكثير من الفهم لما تقوله ، او تريد قوله ، او حتى تشير اليه ، وبالقليل من المحاسبةعلى الفن ، وبمقاييس الفن . فالقلم يتحول في يد قصاص هذه السنوات الرهيبة الى مصباح ، والقصة تحاول ان تقول ربما ما لا يمكن قوله بالمقال . وكاتب القصة العربي المعاصر ، مهما كان اتجاهه ومدرسته الادبية ، اصبح له هدف محدد غالبا من كتابته ، واصبح يضع امام عينيه هذا السؤال : لماذا يكتب ما يكتب ، والآن على وجه الخصوص ؟

وفي ضوء هذه الافكار عن ادب النكسة ، احاول ان اقدم للقارىء، قراءتي كقصاص وقارىء لا كناقد ، كمواطن عربي لا كفنان ، لمجموعة قصصية جديدة للدكتور عبد السلام العجيلي ، عنوانها « فارس مدينة القنطرة »(١) . وبدون مزيد من الملاحظات حول هذه المجموعة وقصصها الخمس ، سندخل مباشرة الى قلب هذه المجموعة وفكرها ، ورؤيتها لصراعنا العربي الراهن مع اسرائيل في القصوصة « فارس مدينة القنطرة » ، ولواقعنا العربي الراهن في القصوصتيه : « مذاق النعل » و « نبوءات الشيخ سليمان » . وربما كان من قبيل التزيد ان نحاول التعريف ، بكاتب له من المكانة في وطنه الصغير سوريا ، مالمحمود تيمور من المكانة في وطنه الصغير مصر . فكلاهما رائد في فنه. وكلاهما وثيق الصلة بتراثنا العربي فلسفته ولغته وادبه وشعره وحكايته ، اسماره ونوادره ، حكمه وامثاله . ويزيد العجيلي على تيمور بانه راوية مدهش لهذا التراث ، بل ويحفظ نصف شعرنا العربي ، وفي كتبه تتجلى طبيعة هذا الراوية ، في قصصه ، ومقاماته ، ورحلاته، ومحاضراته ، واحاديثه ، ومقالاته ، وهو ما سوف نلحظه في قراءتنا الفكرية اولا ، لهذه المجموعة الجديدة ، الشديدة التاثير والاثر ، وبخاصة لو اتبع لها ولغيرها من قصص ادب النكسة ، المزيد من ملايين القراء العرب ، الذين يرزحون تحت اقسى الوان التخلف : الامية .

قصة « فارس مدينة القنطرة » يرويها مؤرخ لا نعرف عنه الا ان اسمه النعمان، وان كنيته ابو وائل ، وانه فارس، ومحارب ، وشاعر، الى جانب غرامه بتدوين كل ما يمر به في يوميات ، وانه من مدينة القنطرة الاندلسية .

التاريخ يعيد نفسه :

ويروي الدكتور العجيلي في قصته ، انه سال عددا من اساتذة التاريخ العربي عن « القنطرة » فاخبروه ان الاندلس القديمة كانت تحوي اكثر من مدينة وقرية وموقع بهذا الاسم ، وبينها مدينة القنطرة التي تقع على نهر التاج ، قريبا من الحدود البرتغالية ، على طريق لشبونة .

ويرجح الدكتور العجيلي ، ان مدينة القنطرة التي يتحدث عنها الفارس الشاعر النعمان ابو وائل في مخطوطته ، هي « في جنوب الاندلس بين غرناطة والساحل الممتد من المرية الى الجزيرة الخضراء ، لان النعمان ذكر في مخطوطته ، في اكثر من مناسبة ، وادي طيبة ومدينة « طيبة » وذكر « رندة » و (جبل عبد العزيز) ، كما يرجح ايضا ، ان وقائع هذه القصة المخطوطة ، حدثت في سنة من «اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، او اوائل القرن الذي يليه ، بعد سقوط اشبيلية وغرناطة في يد الاسبان ، وتراجع العرب الى مناطق الساحل الجنوبي ، تراجعا مؤذنا بضياع ذلك الفردوس من ايديهم .

ولقد بدات هذه القصة المخطوطة ، كما تقول اوراقها ويومياتها، في يوم الاربعاء الخامس عشر من شهر صفر ، من ذلك العام المجهول، وانتهت هذه القصة المخطوطة في يوم الخميس السادس من ربيع الآخر ، اي بعد ما يقرب من شهر وواحد وعشرين يوما .

يحكي الراوي القديم ، الشاعر المؤرخ ، والفارس المحارب ، في مخطوطته ، قصة ضياع القنطرة ، وضياع اهلها بين لاجئين ، وغرباء في مدينتهم نتيجة للغزو الاسباني الذي لم يكن لينتصر على اهلها ، الا نتيجة لخيانة فريق من ابنائها ، وقبولهم ان يكونوا عملاء للاسبان، بل وان يكون معظم جندهم من الاسبان لا العرب ، ونتيجة للفرقة بين ابنائها ، وانقسامهم في مواجهة العدو الى معسكرين متنافرين:احدهما على شرفه وكثرته واخلاصه لاخبرة له ولاتمرس بفنون الخداع،فيقعون ضحية لمكر العملاء ، والوصوليين ، والثاني على قلته خائن وغادر ، وبائع للاهل وللوطن ، نظير وعود بالمناصب . واغراءات بدوام السلطة، ويستمد مكره من مكر جيش العدو ، ولصالحه ، والذي يخطط له ويدبر .

على المعسكر الشريف الاول ، كان القائد العربي المهلهل بن سلام. وعلى المعسكر الثاني كان الامير ابن ساعر ، الفاسق الذي لا يصح له جهاد حتى لو اخلص النية . وعندما تصل الاخبار بان عساكر الاسبان، يتجمعون لحرب العرب بقيادة القائد الاسباني « توذر » يستنكر المهلهل ان ينضم الى ابن ساعر ، لانه يعتقد انه غير مخلص ، بل انه يهدف الى ذبح خصومه العرب واولادهم ، ليخلص له حكم القنطرة .

لكن الصراع بين العرب والاسبان ياخذ طريقه الى الذروة فيتجمع خمسمائة فارس عربي بقيادة المهلهل بن سلام ، ويرابطون في سهل « السيسبان » ، لامرين : الامر الاول ، ان المهلهل ورجاله كانوا مقتنعين بان « توذر » سيهاجم القنطرة بجيشه من هذا السهل ، لانه نقطة الضعف في دفاع المدينة ، والمدخل اليها . الامر الثاني ، ان ابن ساعر مع ادراكه لهذه الحقيقة رابط برجاله واكثرهم من الاسبان ، على المرتفعات الجبلية في مضيق « بنيسة » ، بالرغم من معرفته ان عددا قليلا من الرجال يكفي لدفع جيش باسره عنه ، وان العدو لن يهاجم القنطرة من نقطة قوتها ، وانما من نقطة ضعفها ، من سهل السيسبان المكشوف والمفتوح . وهذه المعرفة من ابن ساعر تشير بكل اصابع اليد الى سوء نيته ، وتواطئه مع العدو الاسباني ، وعمالته لتوذر ، وخداعه لقومه العرب .

وحاول الامير ابن ساعر محاصرة المهلهل بن سلام ، ومصادرة ما لديه ورجاله من آلات الحرب والزاد ، بحجة حاجة الجيش اليها : لكن تجمع اهل المدينة حول المهلهل ، حال بين جند « زنجالة » الاسبان ، وبين تحقيق غرض الامير ابن ساعر ، ولولا ان حال الفقيه ابن حفص بين الناس وبين الجند « زنجالة » لاكلتهم الناس ، فقد كان الفقيه ، لشدة حرصه على وحدة الصف في مواجهة العدو ، يريد تفادي حرب اهلية ، بينما العدو واقف على الابواب ، ولو لا بالصمت ، او انحاز الى معسكر المهلهل ، لتغير مصير القنطرة ، واهل القنطرة ، برغم الحرب الاهلية ، فالشعب هو القوة الاكبر ، وهو في جبهة المهلهل ، وان فتت في عضدة اشاعات الامير ابن ساعر ،

---

(١) منشورات دار الآداب ، بيروت .

ودعايته ضد المهلهل ورجاله .

وتزايد جيش المهلهل في سهل السيسبان ، وجاءت الاخبار بان جيش توذر يستعد للزحف نحو السهل من جانب المخاضة ، ومن وراء أشجار الزيتون . وانعقد مجلس الحرب في فسطاط « ابي بكر بن مرداد » ، قائد الجيش المضري . وعندئذ انحاز الفقيه ابن حفص كلية الى جبهة المهلهل ، بعد ان رأى اجماع الناس على الوقوف معه .

وكما توقع الجيش المضري ، جاء زحف جيش « توذر » على سهل السيسبان ، عابرا المخاضة . وحدثت معركة لم تطل ، وانمرت النصر لاهل القنطرة ، ولاذ الناجون من جيش « توذر » الى ما وراء المخاضة ، واحتموا ببساتين الزيتون في سفوح التلال ، بينما احرق المضريون خيام معسكرهم في يوم الثلاثاء ، في الثامن والعشرين من صفر الخير .

ثم نرى في يوم الجمعة الخامس عشر من ربيع الاول صبية لاجئين من القنطرة الى طيبة ، وحريم المهلهل ، وما أمكن انقاذه من قصره في القنطرة ، فقد سقطت القنطرة ، وتحول اكثر اهلها الى ظعون متلاحقة ، هاربة من القتل في القنطرة ، او من ذل أشد من القتل ، وراح النعمان يتمنى الموت ، والناجون يبكون ، والاطفال يطلبون آباءهم .

لقد قتل المهلهل ، وقتل ابو بكر بن مرداد ، وضاعت القنطرة التي كانت قلعة بين المضايق ، و « امنع من عقاب الجو » .

فما الذي حدث ؟ وكيف وقعت الهزيمة بعد النصر ؟

تلك الوقائع يرويها النعمان في يومياته ، على السنة الناجين من الفرسان . وخلاصتها الاخيرة ، ان جند « توذر » لم يغادروا مواقعهم في بساتين الزيتون على التلال ، وراء الجانب الآخر من المخاضة ، وان الامير ابن ساعر ، عندما رأى هزيمة سادته الاسبان ، من يدين لهم بالولاء ، لجأ الى الخديعة . فدبر ابن ساعر كمينا باشارة توذر أو دبره باشارة ابن ساعر ، فقد أرسل ابن ساعر رسولا الى المهلهل ، يخبره انه ينبغي عليه ورجاله ان يستسلموا ، لان مدينة القنطرة قد سقطت فعلا في يد جند توذر . وطال الجدل حول هذا الخبر في معسكر المهلهل ، فذهب بنفسه ليتاكد من الخبر وهناك عند القنطرة ، وقع في الكمين الذي دبره ابن ساعر ، اذ قتل بعد دفاع بطولي ، وبرغم قلق الجند على مصائر اهلهم في القنطرة ، لم يتحولوا عن مرابطتهم في سهل السيسبان ، بعد ان وعظهم الفقيه بن حفص ، وشد قادتهم من أزرهم ، فارسل اليهم ابن ساعر رسولا بخدعة اخرى ، يطلب نصف الجيش فقط لان طليعة من جيش توذر ، قد نزلت وادي شرشال ، لتقطع الطريق بين المقاتلة في سهل السيسبان والقنطرة ، وقدم الرسول سيف المهلهل امارة على ما يقوله ، وخدع الجيش المضري ، فانصرف نصفه مع رسول ابن ساعر الى وادي شرشال وعندئذ حدثت معركتان : احداهما في وادي شرشال ، حيث اصطدم جيش ابن ساعر بنصف الجيش المضري القادم . وكان جيش ابن ساعر الخائن يرتدي ملابس توذر ، ودارت معركة ضارية ، طحن فيها الجيش المضري الذي فقد قوته بانشطاره . والاخرى في سهل السيسبان حيث عبر جيش توذر المخاضة في كثرة وفيرة العدد والعدة الى البقية الباقية من الجيش المضري في سهل السيسبان . وراح جيش توذر يدور حول الجيش القليل العدد ، دون أن يلتحم به ، وعندئذ جاء جيش الامير ابن ساعر ، وفي الحال اصطف جيش توذر على المسيرة صفوفا متراصة ، وتقدم ابن عمرون احد قواد العملاء لتوذر في جيش ابن ساعر ، واخبر قائد المضرية في الموقع ، ابا بكر بن مرداد ، بان القنطرة قدسقطت في أيدي جيش توذر ، وبان ابن ساعر قد صالح توذر ، على ان يظل ابن ساعر اميرا على القنطرة ، ويظل ابن عمرون نائبه ، فاتهمه ابو بكر بالخيانة ، ورفع عليه سيفه ، ولكنه لم يصبه في مقتل . بل أصاب ابا بكر سهم مراش ، نفذ منه في مقتل . وتوقع رجاله ان يحاط بهم من الجانبين ، لكن ذلك لم يحدث ، فقد قتل قائدهم ، وهم بعد قلة ، وهكذا انتصر جيش توذر ، وانصرف جيش ابن ساعر ، وتفرقت البقية الباقية من الجيش المضري ، بعد مصرع قائدهم ، ويأسهم ، وقد قرّ في نفوسهم « ان الذي اتى على قرطبة واشبيلية وغرناطة ، قد أتى على القنطرة او هو آت عليها مصبحا أو ممسيا » ، وقل منهم من قدر على بلوغ القنطرة ، فقد كانت الدروب مأخوذة عليها بجيوش الاسبان ، الذين تمثلوا في كل مكان يملأون السهل والجبل » .

ويقع الراوي المؤرخ الشاعر ، والفارس المحارب ، صريعا المحمى أياما في طيبة وحين يفيق في صباح اليوم السادس من ربيع الآخر ، يأتي اليه ابو مرداس الفنوي ، يخبره ان ابن عمرون في طيبة ، وانه يفخر بجهاده ، وبفعال سيده ، وانه « انقذ جيش المضري من ان يخاطر به ، حين تسلل العدو الى مدينة القنطرة ، فاستنقذه من الخطر ، وجمعه ليوم عظيم الكرة !! ويخبره ان مقاتلته كثيرة من الاشبان » زنجالة الجبل قد جاءوا الى « طيبة » مع ابن عمرون ، ويظهرون ان نيتهم الجهاد ، ويتساءل الراوي النعمان بن وائل في يوميته الاخيرة : « أعوذ بالله من غضب الله . أترى طيبة تذهب كما ذهبت القنطرة » . وقول الراوي لابن مرداس : « اني على علتي وضعفي ، لاقومن غدا في المسجد الجامع ، بعد الصلاة ، فاعرف الناس بحقيقة ما جرى ، وأحذرهم من المقبل » فيقول له ابو مرداس :

ـ أنصحك بالا تفعل . انك لا تدري ما بالقوم من عمى ، كان الله ختم قلوبهم ، على سمعهم ، وعلى ابصارهم غشاوة ، فهم لا يفعلون ...

فقال له النعمان : « والله لافعلن ، ولو كان فيها نفسي » ويحس من غيظه بالقشعريرة تاخذ اطرافه ، وتعاوده الحمى ، لكنه يفيق عند الغروب . وأراني الآن في خير ، واني غدا لفاعلها .

هذا ما قاله الراوي القديم المؤرخ الشاعر ، والفارس المحارب « النعمان بن وائل في ختام يوميته الاخيرة من المخطوطة .

اما ما قاله الكاتب الدكتور عبد السلام العجيلي ، في نهاية قصته عن المخطوطة ، فقد كان بالحرف الواحد ، هو : « ما الذي فعله النعمان بن وائل بعد ذلك ؟ هل خطب يوم الجمعة ، فافرغ ما في جعبته ونفسه ، أم توانى فلم يفعل ؟ هل عاوده المرض فمات ؟ أم حيل بالقسر بينه وبين ما كان ينوي ؟ لسنا على ثقة من شيء من هذا ، وكل الذي نعرفه ان طيبة التي يذكرها مدوّن المخطوطة فيما دوّن قد ضاعت ، كما ضاعت القنطرة قبلها ، وكما ضاعت غرناطة وطليطلة وقرطبة واشبيلية . أين تقع طيبة هذه ؟ ذلك لا يهمنا في شيء . فقد يكون هناك في الاندلس مدن كثيرة باسم طيبة ، مثلما مدن كثيرة باسم القنطرة ، وكلها ضاعت ، ونحن نعرف ان كل الاندلس ، من ايدي العرب ، قد ضاعت !! »

كرامة الانسان :

الصورة الاخرى لادب النكسة ، هي صور من داخل الوطن صورة تقدم التبرير والتفسير ، لما حدث في نكسات ثلاث بين العرب واسرائيل ، وتقدم جانبا من هذا التبرير والتفسير ، صورة ان الانسان العربي المهان ، تحرمه السلطة من كرامته الانسانية تسلبه هذه الكرامة بمذاق النعل .

هذه الصورة تحكيها قصة بهذا العنوان « مذاق النعل » تحكي القصة عن مجموعة قامت بانقلاب ، او ساعدت عليه في وطن عربي ، كانت مجموعة من أصحاب المثل ، فقنع افرادها بان يظلوا من رجال الصف الثاني .

لكن ، كما قام انقلاب قامت به عصبة مخلصة للحكم ، قام ضده انقلاب اخر ، فشل الانقلاب الاول ، ربما وهذا ما لا تقوله القصة ـ

لانه يفتقد صلته بالجماهير ، ولان رجال هذه المجموعة في الانقلاب الاول ، كانوا من رجال الصف الثاني فقد اعفوا من عملهم ، واغدق عليهم الخير . ليرضوا ويصمتوا ، لكن تمردا يحدث ، فيتهمون به زورا ويقبض عليهم ، ويساقون الى السجن ، والتعذيب الرهيب الذي يسلب الانسان كرامته .

ويتجسد هذا التعذيب فيما يرويه « احمد » راوي القصة للدكتور العجيلي . خلال هذا التعذيب ترفع قدما أحمد في « الفلقة » يوجعه الضرب فيصرخ صراخا لاتغطية اغاني السجن ومؤثراته التي تضخمها الميكروفونات المنبثة ، صراخ يفزع له الجلادون السبعة انفسهم ورئيسهم . فيسد احدهم فمه ، بحشو نعله نفسه في فمه . يصبح النعل فيحسه وشعوره ، رمزا لفقدانه كرامته الانسانية : « تصور ذلك الحذاء في فمي ! لعلني قادر على ان انسى كل ما مر بي من عذاب ومهانة في ذلك اليوم ، وفي ايام غيره ، وكل شعور سعيد او شقي مر في سني عمري كلها ، ولست قادرا على نسيان مذاق النعل في فمي . من يستطيع ان يتصور مذاق النعل غير الذي ذاقه ... لم اقو على احتمال مذاق النعل في فمي ، فانفجرت كل ما في خلايا جسدي من قوى ، في انتفاضة حررتني من أيدي جلادي ، وكان اول ما فعلته والشيء الوحيد الذي فعلته ان انتزعت الحذاء من فمي ، وقذفته بقوة ، حتى سمعت صوت ارتطامه بالجدار . لم امتلك نفسي بعد تلك الانتفاضة الا قليلا ، فقد نزل بي اللكم والركل من جديد .. »

وخرجت هذه المجموعة يوما من السجن . كان « سهيل » احد افرادها ، فتخلص من مذاق النعل بالموت ، تحطم معدنه ، لفرط حساسيته الاجتماعية ، وانتحر : « ان اطفالنا الصغار يتعلمون في المدارس ان النار ولا العار ، والمنية ولا الدنية . ولقد آثر سهيل المنية فكان خيرا مني في التفكير وفي المصير » .

أحمد هرب من بلده الى احدى امارات الخليج. ارتد الى البداوة ولبس ملابس اهلها ، الجلباء ، والعقال . انقذ كرامته الانسانية مرتين، مرة بلفظه للنعل ، ورفضه لمذاقه ، ومرة بهربه من بلد يذوق فيه اهله طعم النعل ، حين يصبحون خصوما لسبب او لغير سبب، وتدور عليهم الدائرة عمل مشرفا على المضخة التي تصفي المياه لشرب الشيخ. وبضبطه له احيانا حساباته بين اهل بسطاء في المعرفة ، ليس بينهم مثقفون . فانا لا استطيع ان اكتمل ان ريح الثقافة تخنقني » ، ومع شيخ « لا يؤمن الا بالكتاتيب . وبتحفيظ القرآن » .

الآخرون لاموا سهيل لانتحاره ، وادانوه لهربه : « كان سهيل افضل مني ، وأفضل بدون شك من بعض زملائنا الذين كانوا يزعمون انهم معنا ايمانا بالقيم الخيرة ، فلما هبت الريح الى اتجاه آخر ، مالوا معها ، هؤلاء الذين يزحفون في ركاب الموكب السائر الآن ، ليس لهم في نفسي اي احترام ، ما دمت أرى أفواههم محشوة بالنعال ، وقد استساغوا مذاقها ، فهم لا يفكرون حتى في التخلص منها ولكني هنا ، على هذا الشاطيء البعيد ، اتساءل عن زملاء اخرين غير هؤلاء . زملاء في عصبتنا التي ملكت أعنة الامور في تلك الايام ، انهم لم ينقذوا كرامتهم بالموت ، كما فعل سهيل ، ولا تجردوا من انفسهم كما افعل انا ، بل عادوا الى الميدان ينتظرون في تيقظ ، او يعملون في الخفاء، يجلدون اسواطا اخشن، من تلك التي جلدت انابها ،وينحتون اخشابا اقسى من التي صلبت رجلاي عليها في السجن ، ويجمعون النعال ليحشوا بها فم الظالمين في يوم مقبل ، أترى هؤلاء افضل من سهيل ، او مني على الاقل ؟ »

ويعلق الكاتب الراوي على تساؤل احمد :

« وافكر في مغزى تساؤله الاخير .. ماذا كان يعني بذلك التساؤل . بالتفكير فطنت الى ان احمد مشفق على الاناسي الذين سترتفع اقدامهم على خشبة الفلق التي رفعت على مثلها قدماه ، وعلى الذين سيذوقون من مذاق النعل ما ذاقه . ان عذابه لم يقض على احساسه وانسانيته ، وامحاؤه لم ينسه وجوده ، وجوده كانسان . وآية ذلك قلقه وحيرته ، وتساؤله ايهم خير : الميت ، ام العامل لغير ما يتلاءم مع كرامة الانسان والانسانية ؟

الواقع والنبوءة :

والصورة الثالثة ـ لادب النكسة في هذه المجموعة القصصية ، هي ايضا صورة من داخل الوطن ، صورة تحكي في قصة « نبوءات الشيخ سليمان » مدى انفصال نوعيات المتطوعين لانقاذ فلسطين ، عن الشعب الفلسطيني ، عام ١٩٤٨ ، وبين هؤلاء المتطوعين ، المتمركزين في قرية بيت « جن » (بفتح الجيم) ، في الجليل غربي صفد ، وشمالي الرامة ، في منطقة جبلية وعرة المداخل ـ شباب من مختلف الطبقات الاجتماعية والمستويات الثقافية .

ان اهل القرية لا يستقبلون هؤلاء بود وترحيب، ويفتحون لهم بيوتهم، الا بعد ان يصل اليهم فلسطيني اسمه ابراهيم ، ويقنع اهل القرية بهم ، وبنبل مقصدهم .

وان احدهم ، وهو راوي القصة ، الذي اصبح يعاقر بنت الحان، في بلده بعد النكسة ، يرى صورة كبيرة ملونة لجورج السادس ، ملك انكلترا . وزوجته الملكة اليزابيت ، في بيت الشيخ سليمان الذي يقيم ضيفا فيه . فيصيح بمضيفه :

ـ كيف تجرؤ على ان تعلق صورة اعدائنا في صدر بيتك ؟

ويجذب الصورة بعنف في وجه مضيفه ويكسرها ، فيجمع الشيخ بقايا زجاجها حزينا ، ويلقيها في فجوة في الجدار ، وراء جرة كبيرة ، ويخرج مطرق الرأس . لا يرفع رأسه ويندم المتطوع ، لما فعل، ويذكر نفسه بان العنف يجب ان يحتفظ به للاعداء ، وان بني الوطن لهم اسلوب آخر لرد الضال منهم الى الصواب . ويذهب المتطوع الى الشيخ سليمان الرقيق الوديع في عليته المكشوفة ، والمشرفة من داره على سفح الجبل ، فيجده يقرأ في مخطوط ، محركا شفتيه دون ان يرتفع له صوت ، ويتودد المتطوع اليه بالكلام باحثا عن طريقة يعتذر فيها اليه من خشونة عمله ، دون ان يبدو اعتذاره تراجعا مشينا ، ويتطارحان الشعر ، ولا يعجب احدهما بذوق الاخر او اختياره . فالمتطوع مدرس ادب في بلده ، والشيخ سليمان يقف عند الغيبيات والنبوءة .

ويحتج الشيخ سليمان لا على كسر الصورة ، وانما على الطريقة التي كسرت بها ، ويتهمه انه ورفاقه عاجزون عن العلم ، وليسوا اهلا له ، بل يقول :

« لو كان لك عقل لما كنت هنا . ليس هذا علما بل هو تفكير »

وعند فجر تلك الليلة ، يعود اليه مدرس الادب المتطوع ، ويدخل عليه خلوته ، فيحس به من غير ان يراه ، ويأذن له بالدخول . ويدور بينهما حوار ، تتخلله نبوءات الشيخ سليمان ، قال الشيخ سليمان ساخرا :

ـ كان الاحسن لك ان تظل في فراشك ، وتشبع نوما . يجب ان تعتني بصحتك ما دمت جئت لتحارب ، فلا بد لمن يريد ان يذبح الخروف ان يسمنه اولا . اليس كذلك يا بني ؟

ـ من الذي سيذبح في هذه الحرب يا شيخ .

ـ كثيرون .. الم تاتوا من مدنكم وقراكم لتموتوا هنا .. ولكنكم لن تموتوا جميعكم . الطيبون منكم سيموتون .

ـ وانا ؟.. اتراني طيبا ؟

ـ قلت ان الطيبين وحدهم سيموتون . اما انت ، فستعود الى اهلك سالما ، لانك لست طيبا .

ثم قال الشيخ سليمان :

ـ جئتم تنقذون فلسطين ، أهلا وسهلا بكم . هل تظنون سهلا ان تطهر هذه الارض بمائة او مائتين من المتطوعين ، وببعض البنادق والرشاشات ؟ في قديم الزمان كان يموت الانبياء وتسبى الشعوب ، وكانت تهدم الهياكل ، وتسيل الدماء انهارا حين يتدنس حجر من هذه الارض . فمن انتم حتى تطهر بموتكم ، وحدكم ، فلسطين ؟ الطيبون وحدهم هم الذين يموتون هنا ، وليس فيكم من الطيبين ما يكفي لتطهير هذه الارض من الدنس الذي فيها . ولذلك قلت انك ستعود الى اهلك سالما ، انت وامثالك ستعودون سالمين . من فشلكم هنا ستكسبون قوة ، وسيصبح لكم سلطان . ومع انكم غير طيبين فانتم غير خبثاء فلذلك ستموتون ، في بلادكم ، في سبيل فلسطين .. ستموتون ان لم يكن بالجسد فبالروح ، ثم لا يكفي هذا لانقاذ فلسطين.

ـ أليس عندك لنا غير الموت يا شيخ ؟ اتق الله في شبابنا .

ـ موت جماعة واحدة لن يطهر الارض يا ابني . بعدكم سيأتي اناس هم دونكم ، اناس لم يخوضوا الحرب ، فلم يفشلوا فيها . انهم دونكم في العمل ، ولكنهم مثلكم في حب القوة والسلطان ، وفوقكم في الغرور . هؤلاء سيموتون ايضا . من لم يمت بجسده فبروحه ، في سبيل هذه الارض . وذلك لن يكفي . جماعات اثر جماعات تتعاقب ثم تنقرض على هذا السبيل . يجيء الطيبون في البدء ويذهبون ، ثم الاقل طيبة ، ثم يأتي الخبثاء . نعم . ان الخبثاء لا بد قادمون اولئك الذين يبيعون ارضهم وملتهم ، ويتظاهرون انهم يضحون في سبيل الارض والملة ، ويأتي بعد ذلك الخونة الكاذبون ، ثم خونة صادقون لا يبيعون الارض بل يتنصلون منها . كل هؤلاء سيأتي بدوره . من ينفض يده من فلسطين ، لانها وقعت في حفرة اعمق من ان تلحقها يده المثقلة ، ومن يبيع الامها واطافلها بفلس ، او بضحكة امراة . ويأتي من دمك ولحمك من يتنصل من فلسطين ، لانها تنقص نومه ، او تفقر جيبه . وبعد كل هؤلاء يأتي الآخرون . اذا كان من قبلهم قد قبض ثمن الذي باعه من تراب الارض المقدسة ، او من دم اهلها ، فان هؤلاء سيدفعون فوق الارض ثمنا لخلاصهم منها ، ومن اهليها . حينذاك ، حينذاك فقط ، بعد ان يموت الناس ، ويحترق التراب ، ويحكم الفاشل ، ثم العاجز ثم الخائن ، ثم الفاجر ، تهتز جنبات الارض ، وتحبل الامة بالالم ، لتلد المنقذ المطهر . هل فهمت ما اقول ؟ لم تفهم عند الغروب ، فهل فهمت الان ؟

كان منظر الشيخ سليمان غريبا ، وصوته قد ارتفع الى الطبقة الحادة ، واكتسى رنة الغضب . « ويتكلم بلسان في وجه من الشمع ثابت التعابير » .

وبعد سنين يحكي مدرس الادب ما حدث له في بيت « جن » ، من خلال منولوج طويل ، وتداخل في الزمن بين الماضي والحاضر ، ويروي نبوءات الشيخ سليمان لرفاقه ، في حانة « الشاب الظريف »، وللساقي معروف . فلا يصدقونه ، بعد ان مر خمسة عشر عاما ، بعد ان ضاعت « بيت جن » في لواء الجليل ، الذي لم يكن به اسرائيلي واحد ، فاصبح يخفق فوقه علم اسرائيل ، واصبح المحاربون القدامى يسكرون لا بالخمر ، وانما من المعلق بالراديو ، الذي لا يكف عن حرب الكلمات ، واحدا بعد آخر ، ومن محطة الى اخرى .

ويقول مدرس الادب ، المتطوع القديم لرفاقه : « مات منا الطيبون ويقي من لم يمت ليثري ، او لينتحر ، او ليحكم ، وصارت لبعضنا كما تنبأ الشيخ سليمان دولة وسلطان ، ثم تولوا ليأتي من بعدهم ومن بعدهم ، في انتظار ان تطهر فلسطين من الرجس والدنس . نعم سيأتي الحاكم الذي يبيع فلسطين ، ثم الذي يدفع مالا ليتخلص من فلسطين بل لعل هؤلاء آتوا ، وهم يقودوننا ونحن لا ندري . السنا سكارى باقوال هذا المعلق الذي في كلامه من النشوة ، اكثر مما في كل بطحائك يا ابا معروف ، اما قال ابو العلاء ان الارض محتاجة لطوفان يغسلها من الدرن ؟.. هات كاسي الثانية يا ابا معروف . شكرا الان استطيع ان اسكر » .

قلعة جعير :

ولعله من المفيد هنا ، ان ننقل عن العجيلي ، من كتابه « اشياء شخصية » سطورا ذات مغزى ، وثيقة الصلة بموضوع قصة « مذاق النمل » ، وبقصص هذه المجموعة من محاضرة له عن الكرامة الانسانية ، القاها العجيلي في مدرج جامعه دمشق ، في الاحتفال الذي اقامته رابطة الدفاع عن حقوق الانسان . عام ١٩٦٤ . يقول :

« في تاريخ بلادنا ، ان « جعير بين كثير الثقفي » ، كان يملك قلعة على شاطىء الفرات ، لا تزال اطلالها قائمة هناك ، تعرف باسمه ، قلعة جعير . واذ كان موقعها منيعا . متسلطا على المواصلات في جانبي الفرات ، فقد فاوضه امير حلب « خالد بن بدران » ليسلمه القلعة ، على ان يعطيه بدلها اخصب الاراضي في سهول حلب ، في تاذف وبزاعة . فقبل جعفر بن كثير بالمبادلة ، وانتقل الى ذلك السهل الغني الخصب ، ينمي المال ، ويبحث عن الترف . وفي ذات يوم ، بعد ذلك بسنين ، مر بجعفر احد معارفه القدماء من البداة ، وساله عن امره وحاله . فتنهد جعير ، وقال : تسالنا عن حالنا ؟ فقدنا العز منذ فقدنا القلعة !.. فحذار من ان تفلت هذه القلعة من بين أيدينا بالتراخي او بالمغريات . وحذار من ان نقول بعد فقدها يوما : لقد فقدنا العز ، منذ فقدنا القلعة « قلعة الكرامة الانسانية » .

بعد ذلك نجد في هذه المجموعة القصصية «فارس مدينة القنطرة» قصتين : « الحب في قارورة » و « العراف » او « زقاق مسدود » . يمكن ان يقال عنهما بالتجوز والتاويل او لهما صلة بادب النكسة ، لانهما تقدمان نماذج شرقية مريضة ، ومتخلفة عن روح العصر ، ونماذجه الانسانية المتطورة ، كتبرير آخر لما حدث قديما ، ولما يحدث في ازمنة تالية لمدينة القنطرة ، التي هي كل مدينة عربية مغتصبة ، او في طريقها الى الاغتصاب ، اذا لم يمل الى الجانب الاخر ميزان القضاء ، وتثقل كفة العدل في يد القدر تتحرك امة باسرها ، لتغير ما بانفسها وواقعها . لكنني ارى هذا التاويل بالنسبة لهاتين القصتين مفتعلا ، وليس له سوى اتصال واه بموضوعنا . فهما من القصص الاجتماعي المعتاد ، الذي يصعب ان نجد له صلة في هذه القراءة الفكرية ، بادب النكسة المقدمة الاولى لادب الحرب او لادب رثاء .

القاهرة

سليمان فياض

صدر عن دار مكتبة التربية

كتاب

الامام الحسين

تاليف العلامة الشيخ

عبد الله العلايلي

يطلب من جميع المكتبات الكبرى